النظرية العنصرية

و شاءت بعض النظريات ان تبرر تفضيلها عنصرا على آخر على أسس معينة مثل نقاء العنصر, و سموه و قابليته على خلق الحضارة . ومن هذه النظريات (النظرية العنصرية) (Racism) . ولقد ساعد عدد من العلماء على نشر هذه النظرية في القرن التاسع, فلاقت قبولا كبيرا في كثير من الاقطار الاوربية, و بلغت ذروة مجدها في الفلسفة العنصرية النازلة, التي كانت الفلسفة الرسمية للدولة الالمانية بين عامين 1933 و 1945 . ولقد روج هذه النظرية فلاسفة المان و ابتكروا اسطورة نقاء و تفوق عنصر تخيلوه, و اطلقوا عليه اسم (العنصر الآري), و ارادوا ان يكون ممثلا في الشعب الالماني وحدة .

و تبشر (النظرية العنصرية) بالتفوق الموروث لبعض العناصر, و بان للعناصر قابليات مختلفة, وتدعي ان شيئا يدعى (عنصرا) أو (دما) هو المسبب الرئيس لكل الصفات المهمة للجسم و الروح و الشخصية و الاخلاق و التفكير, وان هذا الشيء ثابت في أصل تكوين الانسان . و فوق ذلك يعتقد علماء هذه النظرية ان (العنصر) او (الدم) ينتقل من جيل لجيل ليظهر ممثلا في الشخصية و الحضارة للشعب افرادا و مجموعات . وعلى هذا فيجب ان تظهر بين العناصر فروق, لا سبيل لتلافيها, في عقول و نفسيات افرادها .

ان العنصرية فلسفة سياسية محضة و وسيلة يلجأ اليها لاثارة عواطف الشعوب . فهي تثير الاعتزاز في نفوس الافراد و التعصب ضد العناصر الاخرى عامة . فوجود عنصر نقي خرافة مضحكة و يجب ان يعتبر كافة سكان العالم المعاصرين مخلوطين من ناحية عنصرية بشكل كبير . كما ان هناك اسبابا قوية تدعونا للظن بان سكان العالم كانوا قبل عشرة او خمسة عشر الف سنة مخلوطين كما هم الآن . فما كان أي واحد من العناصر و لا هو الآن و لن يكون في المستقبل نقيا ابدا . و من الغريب ان يظهر دعاة العنصر النقي في اوربا و هي احدى مناطق العالم التي هجنت و اختلطت فيها عناصر عدة بشكل قبو متكرر . فمن غير المحتمل ان يوجد اورپي واحد ليس في نسبة سلسلة طويلة من الامتزاج . فالعناصر ليست كالانهار تجري مياهها في مجار معينة, انما هي كالتيارات او الدوامات في مجرى مائي واحد يتبادل فيها كل واحد ما يحمله و يمتزج ماؤه بالمياه الاخرى بصورة مستمرة .

وبعين الوقت الذي تحدث فيه العنصريون عن (العنصر الآري) المتفوق تحدثوا عن شي آخر متأخر أسموه (العنصر اليهودي) . و الثابت علميا ان اليهود ليسوا عنصرآ, بل هم اجزاء من العناصر التي يعيشون معها . فالعنصر كما مر بنا هو مجموعة من الافراد يملكون صفات طبيعية مشتركة . و اليهود لا يملكون صفات طبيعية مشتركة خاصة بهم . فهم في شمال اوربا من قسم (النوردك) من العنصر (القوقازي), لهم عيون زرقاء او خضراء و جماجم طويلة و شعر اصفر, وهم في اسبانيا من قسم (البحر المتوسط الاساسي) من العنصر (القوقازي) بشعر اسود و عيون داكنة و بشرة سمراء . كما يوجد يهود صينيون و هنود و احباش, وهم في كل مكان يتفقون كل الاتفاق في صفاتهم العنصرية مع افراد العنصر الذي ينتمون اليه . و الواقع (ان اليهود ليسوا الا مجموعات حضارية لها دين عام واحد و تقاليد واحدة) .

(وقد اضطرتهم بعض الظروف الاقتصادية و الاجتماعية على ادامة وحدتهم بالعيش بمعزل عن الشعوب التي يسكنون في اوطانهم و بالتزاوج داخليا فيما بينهم, وبحصولهم على العيش من مهن معينة مثل التجارة).

كما أن من المعتقدات الشائعة التي لها علاقة وثيقة بالنظرية العنصرية او بالنظريات المتشابهة لها هي ان للدم علاقة بوراثة الصفات الممتازة و الرديئة . فصار الدم يوصف بانه (ملكي) او (ازرق) او (نقي) او غير ذلك . ان الحقائق العلمية لا تؤيد شيئا من هذا . (فلا علاقة للدم بالصفات الموروثة مطلقا . فالتي تحمل امكانيات ظهور تلك الصفات الموروثة و التي تتحول الى صفات بعد أن تتفاعل مع البيئة الطبيعية هي الجينات التي توجد في الكروموسومات, ولا علاقة لهذه الجينات بالدم ابدا) .

يضاف الى ذلك أن العناصر كلها تتساوى في درجة تطورها . فليس فيها متقدم أو متأخر من وجهة نظر حياتية, بل تقف كلها على نفس البعد من الجد العام للانسان, وكل عنصر يظهر صفات بشرية متقدمة في اتجاه خاص وصفات اخرى متأخرة في اتجاه آخر . ولقد بنت النظرية العنصرية فكرة التقدم و التأخر في العناصر ليس على الصفات الطبيعية الظاهرة فحسب بل وعلى أساس ان لبعض العناصر التي يدعى انها متأخرة صفات عقلية خاصة او نفسيات خاصة فقالوا ان للرجل البدائي ما أسموه (عقلية غير منطقية) (Pre-Logical Mentalitu),أي عقلية لا تعرف التبرير المنطقي . ولقد بذلت جهود كبيرة للتوصل الى شيئ ثابت في هذا المجال . فلجأ العلماء الى اختبار ذكاء عدة جماعات و شعوب بغية التوصل الى قوة عقلية كل عنصر والى اكتشاف فروق بين بعضها ة البعض الآخر . ولم يتوصل من تلك الاختبارات الا الى وجود تفاوت ضئيل بين بعض العناصر . هذا من جهة, و من جهة اخرى فان الاختبارات قابلة للنقد لاستعمالها الفاظا و اشكالا لم يألفها بعض الذين يجري لهم الاختبار, ولانها معدة في اطار عقلي اوربي, فهي دائما في صالح الاوربي دون سواه من افراد الشعوب البدائية . هذا و بالاضافة الى ان تلك الاختبارات لا تأخذ بنظر الاعتبار البيئة الاجتماعية و لا الاطار العقلي لافراد كافة العناصر التي تختبر .

ويرى (گارث) وهو احد علماء النفس التجريبيين (ان الفروق في الذكاء بين العناصر التي توصل اليها الباحثون يمكن ان ترد بساطة الى اثر التنشئة و العناية) (فالعناصر التي بدت اقل ذكاء لم تكن غير ذكية بل كانت غير مثقفة . كما أن كثيرا من البدائيين الذين اختبروا كانوا يكرهون الاساليب و الطرق الاوربية فينعكس ذلك على نتائج الاختبارات) . ثم يقول : (ان اية محاولة منا ان تجرد تلك العناصر, التي نظن نحن انها أحط أو ادنى منا درجة . من حقوقها في التطور الكامل الحر, الذي لها فيه عين الحقوق التي لنا نحن, يجب ان يعتبر دليلا على تبرير التعصب العنصري) . و يقول الاستاذ (ريموند فرث) في كتابه (نماذج بشـــرية) : ان عقــل الانسان البدائي يعمل بعين الاساليب المنطقية للفهم التي تعمل بها عقلنا, و يتفق في هذا الرأي كل من الانثروبولوجي و عالم النفس) . و يقول في موضع آخر من نفس الكتاب (ان القول بان الانسان البدائي اقل منا عقلا أو أن له عقل طفل لا يدل الا على تعصب و جهل قائله) و (ان الرجل الاسترالي او الافريقي لن يتخلف بسبب طبيعة عقله عن بلوغ مستوانا لو ثقف و علم).

كما قام علماء الانثروبولوجيا الطبيعية ببحوث طويلة في هذا الصدد انتهت كلها الى تقرير ان الفروق العقلية بين العناصر معدومة, رغم انها يمكن ان توجد بين الافراد . فلقد قال الاستاذ (فرانزبوس) : ( ان دعوى وجود صفات عقلية خاصة تقررها عوامل بايولوجية لا صحة لها) . و يقول الاستاذ (أشلي مونتگيو) : (ان الصفات العقلية القابلة للقياس في العناصر توحي بقوة انه لا توجد فروق عقلية مهمة بين العناصر مما يمكن ارجاعه الى الصفات الموروثة للجهاز العصبي وحده . وفوق هذا فان الفروق العقلية الموجودة بين الجماعات تبدو اقل من الفروق الموجودة بين اعضاء نفس المجموعة . و تدل كل الدلائل المستمدة من المعلومات المتوفرة لدينا الان على ان ليس لوزن الدماغ و لا لحجمه و لا لشكله و لا لشكل الجمجمة أو الرأس اية علاقة بصفات العقل بين افراد جماعة بعينها . كما لا توجد ارتباط ضروري بين أية صفة من الصفات العنصرية و بين أي نوع من العقلية) .

(و لا قيمة لاي حكم يصدر عن عقلية فرد دون ربط ذلك بالبيئة التي نشأت فيها تلك العقلية) .